في الهوية وأوهامها

في فيلم «خارج الحياة»، قدّم المخرج اللبناني الراحل مارون بغدادي لوحة مأساوية عن الحرب الأهلية اللبنانية، من خلال أقبية المخطوفين اللبنانيين والرهائن الأجانب، التي احتلت في أوساط الثمانينات محور الاهتمام الإعلامي الغربي بلبنان.

في إحدى لحظات الفيلم، الذي يروي تجربة رهينة فرنسي يدعى باتريك، نرى المخطوف داخل زنزانته، وهو يقيم حواراً مع أحد حراسه الذي يكلمه من خلال الباب المقفل. الحارس الذي يطلب من سجينه مساعدته على تعلم الفرنسية، يجيب حين يسأله باتريك عن اسمه، بأن يطلب منه أن يطلق عليه اسماً. يحتار الفرنسي قليلاً قبل أن يسمي حارسه فيليب. يفرح الحارس باسمه الجديد، ويقترح على الفرنسي أن يغيّر له اسمه، مُطلقاً عليه اسماً عربياً هو نعُّوم. «أنا فيليب وأنت نعُّوم»، قال الحارس. عندما أصيب الفرنسي باضطراب كبير رافضاً تغيير اسمه. «لكننا جميعاً هنا نحمل أسماء مستعارة»، قال الخاطف الذي لم يفهم لماذا رفض الفرنسي أن يتساوى به وبزملائه، على مستوى لعبة الأسماء على الأقل.

يلخص هذا الحوار، السؤال الذي تطرحه علينا مسألة الهوية، في عالم يتفكك داخل حرب أهلية دموية. الفرنسي المخطوف، يخاف على اسمه وهويته، ويرفض الإسم العربي الذي اقترحه عليه خاطفه، بينما لا يبالي الخاطف بالتخلي عن اسمه، وتبني اسم فرنسي، رغم أنه أصولي إسلامي، يقاتل دفاعاً عن هويته!

المفارقة ليست في الأسماء فقط، فلعبة الأسماء التي صنعتها تجربة الحرب الأهلية الطويلة في لبنان، فتحت أبواب الجحيم الإنسانية على انكسار العلاقة بين الحقيقة والرمز. وهو انكسار سوف يحدد معنى فكرة الهوية الواحدة المغلقة، ويعلن عبثيتها وموتها في آن معاً.

والإسم مثلاً فعلاً، هو علامة الهوية الفردية، وشكل لمعرفة الآخر. «وعلم آدم الأسماء كلها»، كما جاء في القرآن الكريم. غير أن الأسماء قبل أن تصبح عن خصوصية الفرد، مرّت في مراحل متعددة. ويعلمنا الأدب العربي الكلاسيكي ولا سيما كتاب «ألف ليلة وليلة»، أن الاسم كان اصطلاحاً اجتماعياً. فالأسماء تطلق انطلاقاً من المهن: التاجر أو الخياط أو الصياد... أو انطلاقاً من الطوائف: اليهودي، النصراني...

أو نسبة الى المدن: الدمشقي، البغدادي، المصري... ولم يكن الإسم الفردي يحتل مكانة خاصة، رغم وجوده وضرورته. وخير مثال على ذلك هو الكاتب المُغفل الذي ألّف روائع الأدب الكلاسيكي في العالم، والذي أشار ميشال فوكو إلى غيابه بوصفه تعبيراً عن أهمية الأدب ومركزيته العلمية في العصور الكلاسيكية.

الإسم كان رحلة من العام إلى الخاص. ولن تصبح الأسماء الفردية حقيقية أو توحي بالحقيقة إلا في الرواية الحديثة، التي أرّخت لانبثاق مجتمع الأفراد من رحم المجتمع الرأسمالي، وأسست لملحمة العصر الحديث، بحسب تعبير جورج لوكاش.

اقتراح اللبناني (فيليب)، في فيلم بغدادي، ليس مجرد لعبة. إنه محاولة لإدخال الإسم الفردي في المُغفل الذي صنعته الحرب. الفرنسي يرفض تغيير اسمه، لأنه لا يريد الدخول في مجهول الحرب وموتها، ويصرّ على فرديته الخاصة ويلجأ إلى المرآة. وقد يكون العقاب الأكبر الذي تعرض له المخطوفون يتمثل في غياب المرآة. فحين يقرر الخاطفون معاقبة الفرنسي، ينزعون المرآة من الحمّام الذي كان يسمح له بدخوله مرة في اليوم. هنا يبدأ فصل جديد من رحلة الخطف. نزع المرآة يساوي رمزياً نزع الإسم. فمن دون مرآة لا تستطيع أن ترى صورتك، وتفقد صور الآخرين دلالاتها، عبر غياب المقارنة.

الآخر هو المرآة التي تسمح للذات بالتعرّف إلى نفسها. لذلك كان السرد هو فن البحث عن الآخر الغريب المختلف، من السندباد إلى جوليفر إلى دون كيشوت إلى آخره... السرد اكتشاف للمختلف، حتى كريستوف كولومبوس، فإنه لا يجد تبريراً أفضل لرحلة الفتح الأميركي من ادعائه الرغبة في رواية رحلته للملكين اللذين موّلاها: «ولكن لا أمكث في أي مرسى» يكتب كولومبوس، «لأنني أسعى إلى رؤية أكثر ما يمكنني من البلاد من أجل أن أروي حكاياتها لسموكما».

كولومبوس يكتشف من أجل أن يهدي، أو هكذا ادّعى على الأقل، ثم قام بمزج روايته بالحلم الصليبي: «عندما بدأت الإستعداد لاكتشاف جزر الهند الغربية كان ذلك بهدف مناشدة الملك والملكة اتخاذ قرار بإنفاق الموارد التي يمكن أن ترد إليهما على فتح القدس».

هذا المزج ليس عبثياً، إنه محاولة للبحث عن هوية ما، أمام هول المغامرة وآفاقها المفتوحة، وهي مغامرة سوف تبقى محكومة لفترة طويلة بغياب نصها السردي، أي أن شرط الذهاب إلى عالم مجهول ليس كافياً من أجل السرد، فالسرد يحتاج إلى الآخر – المختلف، وهذا ما كشفه لنا تودروف حين قدّم أطروحة شيّقة عن السرد الغائب الذي أنتجته علاقة ثقافية تميزت باستحالة التفاهم من جهة، وبالنظرة الإستعلائية التي قادت إلى العنف الأقصى والتطهير العرقي الشامل من جهة ثانية.

قد يعود تردد السرد في الإطار اللبناني، وهامشية الرواية في مرحلة ما قبل الحرب الأهلية، إلى العجز عن الإعتراف بالمختلف الذي صنع واقعاً سياسياً، فكان هناك ما يشبه الرفض الواعي والمتعمد للتاريخ اللبناني المتشقق والمجبول بالحروب الأهلية. غير أن انفجار الحرب عام ١٩٧٥، وانهيار المحرمات الذي صاحبها، أفسحا في المجال أمام ولادة الرواية اللبنانية المعاصرة، التي بنت فضاءها من شقوق الواقع والذاكرة. فالرواية، كما أشار باختين، هي جنس أدبي غير منجز، وهي في طور التحقق

الدائم. والرواية اللبنانية تصنع تجربتها من كونها تعبيراً عن مجتمع غير منجز.

في المقابل، فقد عانى المجتمع اللبناني، خلال أعوام الحرب الطويلة، من العجز عن إنتاج خطاب سياسي وتاريخي متسق، بل كان الصراع على التاريخ وتأويله من منطلقات أسطورية مختلفة جزءاً أساسياً من الحرب. لذلك فقد تزامنت مجموعة من النصوص المتضاربة، التي تخوض حروبها الخاصة، وتساهم في تفكيك المجتمع، وفي إنتاج هويات صغرى تقوم على النفي. لذلك، فقد جاء الخطاب الروائي الجديد من الهامش، حاملاً معه التعدد المرفوض من المتن الذي صنعته الحرب في بحثها الدموي عن الهوية.

هذه الحاجة إلى المختلف، من أجل أن يكون هنالك سرد، عبّر عنها الروائي الفلسطيني أنطوني شماس في «أرابيسك»، حين يبحث بار أورن، أحد شخصيات الرواية، وهو روائي إسرائيلي، عن عربي فلسطيني من أجل أن يتمكن من إنجاز روايته.

لا يستطيع الكاتب أن يسرد دون الآخر، حتى وإن كان الآخر مغيباً وممحواً في الواقع السياسي، لأن هذا الغياب يقود إلى تطابق بين الذات والمرآة، وحين يتم التطابق تمّحي الذات وتتلاشى.

تغييب الآخر، هو السمة الأساسية للهوية المغلقة. فالهوية تتحدد بالنفي. من نفي اللغة، عبر نعت الشعوب الأخرى بالعجمة أو الخرس لأنها لا تتكلم لغتـ(ـنا) إلى افتراض تراتب في الأعراف الإنسانية، وهو افتراض قاد أوروبا ومعها العالم إلى كارثة العنصرية والنازية، التي لا نزال إلى يومنا هذا نعاني من آثارها.

الهوية، مثلما علمتنا تجربة الحرب اللبنانية، ومثلما رأينا ونرى في البلقان الذي تهزه المآسي والحروب، هي مجرد افتراض قائم على رسم حدود لا يمكن اختراقها بين ذات مفترضة قائمة في الميثولوجيا التاريخية أو الدينية، وبين آخر وهمي يتم اختراعه من توكيد الذات.

إن التجلي الأكبر لهذا الهوس بالهوية، هو تدمير الحدود بين العالمين الرمزي والواقعي. رموز الآخر – العدو يجري التعامل معها عبر إزالة طابعها الرمزي، مما يبرر عملية الإعتداء عليها وتحطيمها. ولقد كانت المشاهد الأكثر رعباً في حرب لبنان هي مشاهد انهيار الحدود بين الرمزي والواقعي. المقابر نبشت، الهياكل العظمية مُثِّل بها، أماكن العبادة دمرت، الأغاني الشعبية تمّ تأليف كلمات جديدة لألحانها، مستشفيات الأمراض العقلية فتحت، وتمّ في إحدى الحالات (مستشفى العصفورية ١٩٧٦) نقل الصراع الطائفي إلى داخل حياة المرضى العقليين.

خلال إعداد رواية «باب الشمس»، وفي سياق عملي على تسجيل شهادات اللاجئين الفلسطينيين الذين طردوا من الجليل عام ١٩٤٨، وأقاموا في مخيمات لبنان، فاجأتني امرأة كهلة، حين روت عن قريتها، الغابسية، وهي قرية هُجِّر سكانها وألحقت أراضيها بمستعمرة نتيف هشيرا، التي أسسها مستوطنون قادمون من العراق عام ١٩٤٨، وجرى تدمير مقبرتها، وتحويل مسجدها إسطبلاً. لم تكن المرأة معنية إلا بالموتى. كان خوفها الرئيسي يتركز على مقبرة القرية المهدمة، وعلى مصير البقايا البشرية التي تركت هناك.

إن التعامل مع الرموز بوصفها حقيقة، هو جزء مكوّن من حروب الهوية، لأنه يقوم بمهمة مزدوجة:

تأكيد ذات مفترضة قائمة على هوية ثابتة، ونفي ذات أخرى عبر إخراجها من دائرة الحق في الوجود.

يميز جاك حسّون بين مفهومي التماهي والهوية: «التماهي يملك طبيعة مختلفة، إنه يضع الآخر بوصفه عنصراً مختلفاً لا غنى عن وجوده. التماهي يفترض الاختلاف الذي تقوم الهوية بنفيه».

يسمح لنا هذا التمييز بين التماهي والهوية، بفهم معنى الهوية الذي لا يتحدد إلا بالنفي. النفي وليس الإختلاف، الإمتياز وليس التمايز. فتصبح الهوية، بذلك، أداة لكسر الحدود بين الرمز والواقع، فاتحة بذلك الباب أمام البربرية.

أعود إلى الحرب اللبنانية، التي لا أستطيع الإحاطة بجميع عناصرها أو مراحلها المختلفة، لأنها كانت مجموعة حروب متتالية داخل حرب واحدة، وأبدأ من مسألة الإسم المستعار الذي اقترحه علينا فيلم «خارج الحياة»، كمدخل محتمل من أجل تحليل عناصر حرب الهوية. وسوف أتوقف عند ثلاثة عناوين لهذه الحرب.

العنوان الأول: الأسماء

كانت الحرب الأهلية اللبنانية مختبراً كبيراً للأسماء. وظاهرة استخدام الأسماء المستعارة، ارتبطت في لبنان، كما في جميع أنحاء العالم، بالعمل الحزبي السري. غير أن الحرب الأهلية أحدثت تعديلاً جوهرياً على هذه الظاهرة، وحولتها عن طبيعتها الوظيفية (التخفي خوفاً من ملاحقة الشرطة) إلى جزء من حرب الهوية.

قد يكون الإستخدام الفلسطيني للأسماء المستعارة، وإصرار القادة الفلسطينيين على أسمائهم الجديدة، حتى بعد تحولهم شخصيات علنية ورسمية، هو أحد أسباب هذه الظاهرة. غير أنني أعتقد أن الظاهرة تعدت سببها الأول، وامتلكت سمة دلالية مرتبطة بمراحل الحرب المختلفة. هكذا قامت الأحزاب والميليشيات اللبنانية، بإطلاق أسماء مستعارة على مقاتليها، رغم أن بعضها، مثل حزب الكتائب، لم يعرف العمل السري في تاريخه.

إذا حاولنا دراسة دلالات الأسماء، فسوف نكتشف ثلاث مراحل، ليست متعاقبة بالضرورة، لكنها تشير إلى تبدل دلالات الحرب.

المرحلة الأولى: الإنتماء

في بداية الحرب، اتخذت الأسماء دلالات انتماء سياسي أو فكري أو أيديولوجي أو طائفي، فشاعت أسماء مثل: جيفارا، هوشي منه، بومدين، أبو خالد، يسار، كاسترو، فلاديمير، عز الدين القسام، شكيب، طارق ... وأبو أرز، فرنكو، الأبونا، بوتسي، ... من جهة أخرى.

إنها أسماء البداية، حيث اتخذت الحرب شكل انتماء سياسي وعقائدي، وهو انتماء طبع ما سُمي بحرب السنتين، التي انتهت مع التدخل العسكري السوري ١٩٧٦، ومع اغتيال قائد الحركة الوطنية اللبنانية كمال جنبلاط.

المرحلة الثانية: الظاهرة الاجتماعية

في أثناء ذلك، أو بعده، بدأت تبرز أسماء تدل على إعجاب بظواهر اجتماعية، من نجوم السينما إلى نجوم الغناء وكرة القدم. وهنا بدأت الحرب تتخلى عن طابعها الأيديولوجي الصارم، من أجل أن تصبح جزءاً من الظاهرة الميليشياوية. فبرزت أسماء مثل كاوبوي وستالون وزيكو ومارادونا إلى آخره... .

المرحلة الثالثة: الغرائبية

وأخيراً جاءت الأسماء التي تشير إلى علاقة بالعناصر الطبيعية: الليل، الخف، الموت. فشاعت أسماء مثل أبو الليل وأبو الجماجم وأبو خشبة وكوبرا وأبو الهوا وإلى آخره... والملاحظ أن ما نسميه بالمرحلة الثالثة من الأسماء، كان جزءاً من المرحلتين السابقتين، لكنه اتخذ أهميته وحجمه مع المراحل الأخيرة من الحرب.

نلاحظ أن المرحلة الأولى من لعبة الأسماء اللبنانية، أخذتنا من الإسم الخاص إلى الانتماء الجماعي سواء أكان طائفياً أم سياسياً. فلقد عكست هذه الأسماء رغبة في الإنتماء إلى القبيلة، سواء كانت حزباً أو ميليشيا أو طائفة. الإسم المستعار لم يكن أداة تخف إذاً، بل كان أداة إشهار للإنتماء. الفرد يتخلى عن إسمه الشخصي طوعاً من أجل أن يحمل إسماً مطابقاً للجماعة الذي يريد التأكيد على أنه يقاتل باسمها ودفاعاً عنها.

غير أن ظاهرة بروز أسماء جديدة مرتبطة بنجوم الفضاء والسينما وكرة القدم، تؤشر إلى بداية تشقق الهوية الجماعية، إذ أصبح الأفراد يطالبون باستعادة ملامحهم الفردية التي فقدوها حين تنازلوا عن أسمائهم الأصلية. ثم أتت الأسماء الطبيعية والأسماء التي لا دلالة لها، لتؤشر إلى ما يشبه انهيار خطاب الهوية الجماعي، وشيوع الظواهر المافياوية في أوساط الميليشيات المتقاتلة. وهي ظواهر ارتبطت في البداية بضرورة تأمين المال للتنظيم، ثم تحولت وسيلة للإثراء السريع وولادة طبقة أغنياء الحرب، التي امتدت أنشطتها من فرض الخوات والضرائب ونهب المرافق العامة، إلى تجارة السلاح والمخدرات، وإدارة شبكات الدعارة... .

العنوان الثاني: الأقنعة

نقرأ في رواية «ما تبقى لكم» لغسان كنفاني، الإشارة الأولى إلى ظاهرة القناع أو الكيس في الأدب العربي الحديث. تأتي هذه الإشارة في سياق وصف واقع الاحتلال الذي تعرضت له غزة عام ١٩٥٦، من قبل الجيش الإسرائيلي، حيث طلب من جميع الرجال التجمع في إحدى الساحات، ثم أدخلوا إلى التحقيق، ليجدوا أنفسهم أمام ضابط إسرائيلي يرافقه رجل يخفي وجهه بكيس. وحين يؤشر الكيس فمعنى ذلك أن الرجل مذنب أو «مخرب»، مثلما كان يسمى المقاومون، ويؤخذ إلى السجن. ثم تبلور الكيس في رواية

إميل حبيبي «المتشائل» التي روى فيها بعض أحداث نكبة ١٩٤٨.

في الحرب اللبنانية، بدأ استعمال القناع في شكلين متزامنين:

القناع الأول للتخفي. إذ عمد بعض أفراد الميليشيات إلى تغطية وجوههم بالأقنعة: كلسات نايلون أو أقنعة حيوانات (تستخدم عادة في طقوس عيد البربارة في لبنان) أو مجرد أقنعة من القماش العادي. حتى الكوفية الفلسطينية التي تحولت رمزاً للمقاومة، استخدمت في بعض الأحيان، قناعاً يخفي وجوه المقاتلين.

القناع الثاني للمخطوفين أو الأسرى. ففي اللحظة التي كان يقع فيها سيءُ الحظ، في قبضة حاجز طائفي يخطف الناس استناداً إلى انتمائهم الديني (كانوا يسمونه في لبنان خطفاً على الهوية، لأن الإنتماء الطائفي كان يكتب على بطاقات الهوية)، يتم فيها تغطية رأسه بكيس من الورق الأسمر أو النايلون الأسود، من أجل أن لا يرى خاطفيه أو المكان الذي سيؤخذ إليه. وفي بعض الحالات، كانت عمليات الخطف هذه تبدو بالغة الغرابة، إذ كان الخاطف والمخطوف يلبسان الأقنعة، ولا يمكن التمييز بينهما إلا عبر البندقية التي يحملها الأول.

الإستخدام الإسرائيلي للكيس كان وظيفياً في البداية، فالذي يلبس الكيس كان عميلاً محلياً لا يريدون كشف هويته خوفاً على حياته من انتقام السكان. أما أقنعة اجتياح لبنان ١٩٨٢، حيث اعتقل الآلاف وعصبت عيونهم قبل نقلهم إلى معتقل أنصار، أو أقنعة الحرب اللبنانية، فقد فقدت وظيفتها وتحولت رمزاً للحرب.

بدأ كيس أو قناع الحرب اللبنانية وظيفياً في الأشهر الأولى من الحرب، حين كان التنقل بين المناطق المختلفة ممكناً، قبل أن ترتسم الخطوط الصارمة التي فصلت المناطق عن بعضها. أما بعد ذلك ففقد الكيس مبرر وجوده، بالنسبة للمقاتلين على الأقل، لكنه تحوّل تقليداً ثابتاً وشائعاً.

الأقنعة أو الأكياس، وحدت أشكال عناصر الميليشيات المختلفة، بل أكاد أقول إنها وحدت بين شكل الجلاد والضحية. كأن الجلاد كان يشعر أنه ضحية محتملة ويتصرف كالمذعور ماحياً هويته الجماعية التي سعى إلى توكيدها بالحرب.

بعد الأسماء، أصبح القناع ممحاة ثانية للهوية، كأن الحرب كانت تخاض بالمماحي. محو الآخر ومحو الذات، وصولاً إلى محو اللغة.

العنوان الثالث: اللغة

اتخذت الحرب اللبنانية في مراحلها المختلفة شكل الحصار، كأن المناطق المتداخلة تشكلت كدوائر تحاصر بعضها بعضاً. بيروت الغربية تحاصر بيروت الشرقية، بيروت الشرقية تحاصر جسر الباشا وتل الزعتر والنبعة. الجبل يحاصر بيروت، الجنوب يحاصر الجبل، وإلى آخره... .

دوائر الحصار المتبادلة والمتداخلة، كانت معادلاً جغرافياً للتبادل اللغوي المذهل الذي صنعته الحرب.

إن تحليل الخطاب السياسي لمختلف الأطراف المتحاربة، سوف يفاجئنا بسيولته وبقدرته على الإنتقال من موقع إلى موقع دون تبديلات كبرى. فالميليشيات اليمينية التي خاضت الحرب في البداية، تحت شعار رفض الوجود الفلسطيني في لبنان، لم تلبث أن تبنت في خطابها السياسي اللغة الفلسطينية بعد أن قامت برسكلتها. ثمّ، وبعد الإجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢، وخروج القوات الفلسطينية، قامت الميليشيات الإسلامية، بتبني اللغة الكتائبية ورسكلتها... إلى درجة أن المحلل لن يستطيع تمييز الكثير من الخطابات السياسية عن بعضها، إذا لم يكن يعرف صاحب الخطاب في شكل مُسبق.

التبادل اللغوي أمر مثير، في حرب دارت في أحد أوجهها على الهوية. كأن الخطاب السياسي فقد هُويّته، أو كأن الحرب قامت بطحن اللغة وتحويلها سائلاً يتلون بألوان الآنية التي يوضع فيها.

ولعل نهاية الحرب الأهلية، تكشف دلالاتها. فلم تنته الحرب، رغم كل المساعي الدولية، إلا بعد أن انتقلت إلى حروب داخلية في جميع المناطق.

فالإنسداد السياسي واللغوي قاد إلى مجموعة من الحروب الطاحنة داخل الميليشيا الواحدة، أو داخل ميليشيات الطائفة الواحدة، مما شكل الأرضية التي جعلت من الإتفاق الأميركي – السوري، حول إنهاء الحرب اللبنانية، مسألة ممكنة.

هذه العناوين الثلاثة التي أنتجتها حرب الهوية، تكشف لنا انسداد فكرة الهوية وكونها أداة تدمير داخلي. فالدفاع عن الهوية الصافية لا يتم إلا عبر كسر المرآة. وحين ينكسر الآخر يمتد العنف إلى الذات، وتصبح الحرب أشبه بالإنتحار.

لذلك اقترح العودة إلى تمييز جاك حَسُّون بين الهوية والتماهي. فالتماهي لا يعني فقدان الهوية، بل يضعها ضمن فضاء متعدد، إنه فضاء الهويات المتغيرة بحسب تعبير إدوارد سعيد.

ولكن لماذا وكيف انكسر فضاء الهوية، لتحل مكانه فكرة الهوية – الممحاة؟

حين ربط كولومبوس بين فتح أميركا وفتح القدس، فإنه كان يحاول إعادة تأسيس فكرة الهوية على الأسطورة. وهذا ما فعله الجنرال الفرنسي غورو بعيد الحرب العالمية الأولى، حين دخل دمشق فاتحاً، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبي ليقول له بشكل مسرحي لا يخلو من شيء من المهزلة: «ها قد عدنا».

ولكن لا كولومبوس ولا غورو يمتان بصلة إلى الحروب الصليبية التي دارت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، إنهما أبناء المرحلة الإستعمارية التي افتتحت عصراً جديداً، لكنهما أرادا أن ينتسبا، ولو وهمياً، إلي ماضٍ ما، يبرر بالتاريخ تحولات المستقبل.

وفي عالمنا اليوم، تقوم القوة الأميركية المهيمنة، روما الجديدة، بتجديد فكرة الهوية عبر الربط بين «نهاية التاريخ» و«حرب الحضارات». التاريخ ينحلّ في اقتصاد السوق، بينما تواصل الحضارات حروبها. ولعل المأساة التي تناوبت على صُنعها الدكتاتورية وطائرات حلف الأطلسي في صربيا وكوسوفو، تقدم لنا ملامح الزمن الجديد الذي تحاول الإمبراطورية الأميركية تأسيسه في عالم ما بعد الحرب الباردة.

الدكتاتوريات، من بغداد إلى بلغراد، كانت تعبيراً عن فشل التجربة ما بعد الكولونيالية في العالم

الثالث، لأنها تبنت نموذج الدولة – الأمة، أو / و فرضت دكتاتورية الحزب الواحد، فقامت بذلك بتدمير مجتمعاتها، قبل تعريضها للدمار الذي صنعه الغزو العسكري الأطلسي.

في زمن الإستعمار، عبّر فرانز فانون عن صرخة «معذبي الأرض»، بوصفها دعوة إلى التحرر بالعنف، وقد اصطبغت الدعوة بألوان الدفاع عن ثقافات الشعوب المضطهدة التي حمل لواءها ايميه سيزير وسنغور وآخرون.

غير أن هذه الدعوة، اصطدمت في المرحلة ما بعد الكولونيالية بالعجز عن صياغة مجال أو فضاء الهوية في الدول التي استقلت حديثاً. ولعل الفشل العربي، أي فشل تجربتي الوفد وناصر في مصر، يشكل نموذجاً يستحق الدراسة. فالمشرق العربي الذي وجد نفسه بعد الإستقلال، في مواجهة المشروع الصهيوني الذي أنشأ دولة – أمة على النمط الأوروبي على أنقاض فلسطين، حاول تقليد النموذج المنتصر، متخلياً عن تعدديته وفضاءاته الثقافية، معطياً للفكرة العربية تفسيراً قومياً ضيقاً صاغه ضباط الجيش الذين استولوا على السلطة بالإنقلاب العسكري.

سقطت التجربة، ليس في الهزائم العسكرية المتتالية فقط، بل أمام العجز عن بناء دول ديمقراطية، مما قاد إلى انكسار اجتماعي داخلي، عبر عن نفسه في الأصوليات المختلفة، التي تسعى إلى بناء لحمة اجتماعية في الوهم والدم.

الكاتب الإسرائيلي عكيفا أور، مؤلف «الدولة غير اليهودية»، يقدم لنا صورة عن عجز الهوية عن صوغ اللحمة الإجتماعية، فالهوية الصافية ليست أكثر من أداة للحرب.

يروي أور هذه الحكاية التي جرت خلال حرب ١٩٤٨: ففي إحدى القرى الفلسطينية التي سقطت وتم تجميع سكانها وإصدار الأوامر إليهم بالهجرة، قام أحد الجنود بتفتيش الرجال والنساء بحثاً عن المال والمجوهرات. فانتهره زميل له وطلب منه أن يتوقف لأنه لن يجد شيئاً. «إذا أردت المال عليك أن تبحث عن أصغر طفل فيهم وتفتشه، فستجد المال مُخَبَّأ في ثيابه». عمل الجندي بنصيحة زميله، فاختار مجموعة من الأطفال ليجد المال مختبئاً في ثياب أحدهم.

عاد الجندي وسأل زميله: «كيف عرفت، يبدو أنك خبير في نفسية هؤلاء العرب».

«لا»، أجابه، «المسألة لا تتعلق بالفهم بل بالتجربة، فأنا كنت أصغر أفراد عائلتي في بولندا خلال الحرب العالمية الثانية».

هل توضح لنا هذه الحكاية الفرق بين الهوية والتماهي؟

أما حين يوضع التماهي في خدمة الهوية، فإن هذا لن يقود إلا إلى البربرية.

|

انتهت الحرب الأهلية، أو سكتت، لست أدري. غير أن الأسئلة التي طرحتها المرآة اللبنانية المحطمة، تبقى معلقة ودون جواب. اللبنانيون اكتفوا من الحرب بإسدال ما يشبه النسيان على ذاكرتهم المحفورة بالعنف والدم، وبلعبة الأقنعة والأسماء، أما الثقافة فلم تجد في هذا الإنفجار المأساوي، سوى مناسبة لكسر شقوق الذاكرة المقفلة بالفولكلور والخطاب الأسطوري، من أجل أن تؤسسه مقتربات فنية جديدة أكثر اقتراباً من حقائق المعيشة، كالرواية والمسرح والسينما.

غير أن المسألة تحتاج مراجعة جذرية لمفهوم الدولة، ولمفهوم الفكرة العربية نفسها.

كيف نحرر العروبة من الإنزلاق إلى أحادية ثقافية، لن تنتج سوى الدمار والحروب الأهلية والدكتاتوريات؟

كيف نحرر الهوية من هويتها، من أجل أن تصبح تماهياً مع التعدّد، ومع المطرودين والمهمّشين؟

هذه هي الأسئلة.

الياس خوري

بيروت